دور **العلماء** في **زمن الغيبة** بين الفقه والواقع

العلاّمة سماحة الشيخ محمود العالي

سؤال: ما هو الدور الذي يجب ان يقوم به العالِم كما امره اللّه تعالى؟

الجواب: من خلال التتبع للروايات الواردة بشأن العلماء نجد جملة من الادوار التي أنيطت بالعلماء.

وهذه الادوار في غاية الأهمية:

١- دور تبليغ الاحكام الشرعية.

٢- دور الاجتهاد للوصول للحكم الشرعي.

٣- دور دفع الشبهات والتشكيكات عن الدين.

٤- دور التحصين لجماعة المؤمنين والمجتمع الاسلامي من الشبهات والفكر الوافد والمضاد للدين من خلال البناء العلمي والفكري والعقائدي.

"عن أبي حمزة عن الباقر (ع): عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد"

لو فرضنا انه انقطع هذا الدور التبليغي في جيل من الاجيال فإن انقطاعه مساوق لانتهاء الدين وانتهاء الإسلام.

وهذا امر في غاية الخطورة

ولذلك اكدت الروايات على ان هذا الدور الذي يطلع به عالم الدين اهم من سبعين ألف عابد.

"عن سعدان بن مسلم عن بن عمار: قلت لابي عبد اللّه رجل راوية لحديثكم يبث ذلك في الناس ويشدده في قلوبهم وقلوب شيعتكم ولعل عابد من شيعتكم ليست له هذه الرواية ايهما أفضل؟

قال الراوية لحديثنا يشد به قلوب شيعتنا أفضل من الف عابد"

تعليق على الرواية:

لماذا دور هذا الراوي للحديث الذي ينقل هذه الأحاديث أفضل من ذلك العابد الذي هو اقل رواية؟

لماذا أصبح هذا العالم الذي يبث التعاليم الدينية أفضل من العابد؟

"عن مدرك بن عبد الرحمن عن ابي عبد اللّه: إذا كان يوم القيامة جمع اللّه الناس في صعيد واحد ووضعت الموازين فتوزن دماء الشهداء ومداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء"

الفيض الكاشاني يعلق: سبب رجحان مداد العلماء على دماء الشهداء أنَّ في الدماء حفظ للأبدان، ولكن ما يقوم به العلماء فيه حفظ للدين.

إذن كل هذه الادوار التي يقوم بها العالم لا يمكن الاستهانة بها، وطبيعة هذه الادوار تلزم العالِم بدور آخر الا وهو التصدي والقيادة ولا يمكن الفصل بين الأدوار.

والشاهد على ذلك ان هناك حالة ارتكازية في نفوس الناس عن الملمات والحوادث فإنهم يفزعون الى العلماء...

السؤال: قد يحاول البعض التشكيك في مكانة العلماء بزعمه ان جعلهم في هذه المكانة كخطوط حمراء لا يمكن الاقتراب منها وكأنهم معصومون يفتح المجال لدكتاتوريات "على حسب تعبيرهم" تستتر بحجاب العلم والدين لفعل ما تشاء ما هو رأيكم سماحة الشيخ؟

الجواب: لماذا نحن ننظر الى الروايات التي اشتملت على المدح والثناء ولا ننظر على الروايات التي وردت في ذم شريحة من العلماء؟

إذا كنا نريد ان نكون مفهوم معين لا بد ان ننظر في كل ما جاء من اثار ومأثور عن الدين حتى يتكون لنا مفهوما واضحا، فليس علينا ان ننظر جانبا ونغفل عن جانبا اخر، فقد جاء في ذم شريحة من العلماء ما يوازي او حتى يفوق هذه الأحاديث التي تمدح العلماء.

ما ورد في كتاب الفقه الرضوي: من تعلم العلم ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء او يصرف وجوه الناس إليه ليرئسوه ويعظموه فليتبوأ مقعده من النار، فالعالم الذي يتخلى عن التقوى والورع ويحاول ان ينال حطام الدنيا وليرئسوه الناس فهذا هو مصيره.

عن النبي (ص): العلماء رجلان رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج ورجل تارك لعلمه فهذا هالك وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدا الى اللّه (عز وجل) فاستجاب له.

فالعابد استفاد من هذا التارك لعلمه فأدخل اللّه ذلك العابد الجنة وأما التارك لعلمه فقد دخل النار.

قال امير المؤمنين: لو أن حملة العلم حملوه بحقه لاحبهم اللّه وملائكته واهل طاعته من خلقه، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا فمقتهم اللّه وهانو على الناس.

بعض الاحيان نحن نترقب احتراما وتعظيما من الناس فلا بد من مراجعة حساباتنا، هذا العلم الذي حملناه هل هو للّه؟، فاذا كان للّه فنتيجة ذلك كسب حب اللّه وملائكته وخلقه، وإذا كان لا سمح اللّه للناس فقد كسبنا مقت اللّه.

عن الامام الرضا (ع): من طلب العلم ليباهي به العلماء او يمارى به السفهاء او ليصرف به وجوه الناس اليه فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح الا لأهلها.

إذا وازنا بين تلك الأحاديث التي تتكلم عن ثناء ومدح العلماء وهذه الأحاديث التي ذُكرت اعلاه نخرج بمفهوم متكامل الا وهو:

ان هذا التكريم ليس لأنه يحمل علمًا، بل الذي يوجب الاحترام هو العمل بالعلم، فهو من اسباب التقوى.

ومن دون الاخذ بملكة التقوى والورع يكون حال هذا العالم حال ما وصل به علماء بني اسرائيل "كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا".

وانصح بقراءة كتاب العقل والتوحيد من أصول الكافي أو البحار.

السؤال: كيف يجمع عالم الدين بين دوره كقيادة الحياة بالمنظار الديني والذي يتطلب خوضه في مختلف المجالات التخصصية وهو غير متخصص فيها؟

الجواب: لا يعني ان عالم الدين غير متخصص في بعض الجوانب او بعض الجهات يمثل هذا عائقًا او يمثل عاملًا سلبيًا في صلاحيات العالِم لقيادة المجتمع.

من قال أن العلماء يتدخلون في الشأن التخصصي من دون مراجعة اهل الاختصاص؟

أي شخص يحترم نفسه ويحترم عقله لا يمكن ان يعطي رأيًا غير المجال الذي هو متخصص فيه.

العلماء في الشؤون الغير الاختصاصية يرجعون للطبيعة، يرجعون لبعض القضايا العلمية، يرجعون لبعض العلوم الاكاديمية، طبيعي انهم يعودون لأهل الاختصاص.

الفقيه إذا أراد أن يحكم بحكم شرعي لابد أن يكون الموضوع عنده واضحًا تمامًا، إذا لم يكن واضحا لا يستطيع إعطاء الحكم الشرعي، فلا بد ان يكون الموضوع واضحًا.

الموضوع ممكن ان يكون عرفي، مثل الماء طاهر، لا يحتاج الانسان أن يأتي الى الماء ويقول من ماذا يتكون ومن اي عناصر يتكون، كل انسان يعرف ان هذا ماءً، فالفقيه هو واحد من الناس، تشخّص له بأن هذا ماء فأصدر حكمًا بطهارته.

أما في بعض المواضيع تحتاج الى العودة لأهل الاختصاص، مثال على ذلك الكحول: لا يمكن للفقيه ان يقول هذا الكحول طاهر او نجس مالم يتشخّص إليه ممّ يتكون.

لابد ان يعود لعلماء الكيمياء لمعرفة ممّ يتكون، لكي يصبح الموضوع عند الفقيه واضحًا ومن ثم إصدار الحكم الشرعي.

الخلاصة: عدم تخصص الفقيه في بعض الجوانب لا يمنع ولا يمثل عائقًا من صلاحية قيادته للحياة لأنه يستعين بأهل الخبرة، وبعد ذلك يقوم بدوره ألا وهو بيان الحكم الشرعي.

السؤال: صيغة التشريعات وفقا لملاحظة المصالح والمفاسد، ولكن إفهام الفقهاء للنصوص تختلف وهذا الاختلاف قد يجعل الناس في حيرة اولا وثانيا قد ينتقض الغرض من التشريع وهو اصابة المصالح وتجنب المفاسد فما هو الحل؟

أولا: هل يوجد تفاوت بيّن وشاسع، مساحة التفاوت لفهم الفقهاء للمدارك شيء كبير؟

إلى درجة أن نقول إن نتيجة هذا التفاوت في الافهام بين الفقهاء يؤدي الى عدم قدرة المكلف على اتباع الفقهاء نتيجة تفاوتهم في الفهم "بعبارة أوضح"، هل مساحة التفاوت مساحة كبيرة؟

لان بعض أهل التخصص يقول: الفقهاء دائما مختلفون، والناس تأخذها من دون تأمل ولا تفكر، وتصبح بعد ذلك شبه حقيقة، في حين أن ذلك التفاوت مساحة جدا قصيرة.

نلاحظ في الرسالة العملية

تحرير الوسيلة المنهاج إذا علق عليها الفقهاء كم موارد التفاوت بين المتن الاصلي وبين ما ذكره الفقهاء؟!، أحد الفقهاء علق على منهاج الصالحين موارد التعليقات على رسالة عملية من الطهارة الى الديات، كم تعليقة أستخرج؟! 25 تعليقة، بينما كم مسألة في المنهاج؟ أكثر من 3000 مسألة..

موارد الاختلاف بين هذا الفقيه الذي علق على المنهاج وبين ما ذكره السيد الخوئي 25 تعليقة، فتعتبر نسبة جداً ضئيلة، فهذا التفاوت الذي يُدّعى غير موجود أصلا.

فهذا التهويل والمبالغة هو أخطر ما نواجه، كل ما أردنا ان نعطي تقييم نواجه كمية هائلة من التهويل والتضخيم، فبالتالي نكون مبتعدين عن الحقيقة، كلما أردنا أن نقترب للحقيقة نتجنب أسلوب التهويل والتضخيم والتعظيم، علينا أن نكون واقعيين...

ثانيا: هناك شرط، إذا اتبعنا بلحاظ الواقع لا يكون له اي تأثير على الاختلاف وهو شرط الأعلمية، إذا قلنا انه يشترط الأعلمية في مرجع التقليد مثلا، تكون الأعلمية مترددة بين شخصين او ثلاثة لا أكثر، وهذا لا يعسر اتباعهم إذا لاحظنا أخلاقياتهم...

ونحن رأينا على أرض الواقع السيد السيستاني والسيد الحكيم كلاهما في ساحة واحدة، ولكن السيد محمد الحكيم مع كونه مرجع عظيم الشأن ولا يخرج من دائرة الأعلمية لكن لا يصدر موقفا غير الموقف الذي يتبناه السيد السيستاني، يجعل الأمر تبعاً لموقف السيد السيستاني ولو كانت قناعاته تختلف...

هذا في الامور الفقهية، أما في الامور العملية لابد أن تنحصر في شخص واحد.

السؤال: ما هو تقييمكم لدعوات توحيد الآراء الفقهية او المرجعيات الدينية خصوصا في المجالات المتعلقة بالشأن العام والتي تحمل آثارا اجتماعية متداخلة وقد تكون خطيرة؟

الجواب: هي دعوات فاشلة.. وهي أساسا منذ زمن أطلقت، أنت إذا طالبت بتوحيد المرجعيات يعني الغاء دور الاجتهاد الا أنه تعدد الاجتهاد نعمة من النعم التي تعكس مرونة الدين وتعكس سر كبير في هذا الدين وهو ديمومته وحيوته تعدد الاجتهاد ليس شيئا سلبيا، بل هي نعمة كبرى.

أين تكمن المشكلة؟

عندما نبتعد عن الضوابط العلمية، نحن طلبة العلم نتحمل جزء من هذا الواقع المربك، فإذا صارت المسألة محصورة بين أهل الخبرة وأهل الخبرة معروفين بتدينهم وورعهم لن يكون هناك فوضى على مستوى المرجعيات الفقهية، وتحدد بين شخصين او ثلاثة لا أكثر.

فجزء من هذا الارباك بسبب التعدد لا يُحل بتوحيد المرجعيات إنما يُحل بضبط الضوابط الصحيحة في إرجاع الناس، فإذا التزموا طلبة العلم وقاموا بإرشاد الناس وضبط الضوابط الصحيحة في إرجاع الناس لن يكون هناك فوضى.

السؤال: ما يعرف بالحيل الفقهية يؤتى بها كحلول لمحاكاة متغيرات الواقع وظروف الزمان والمكان المتبدلة ما هي ضوابط ذلك؟ وما هو رأيكم في هذا الحل؟ ألا يعد التفافا قد يناقض اغراض النوعية التي شرعها الشارع لأهداف معينة؟

الجواب: البعض قد يتحسس من الحيل الشرعية لأنه يفهم من الحيل أنه نوع من الالتفاف بينما الحيل الشرعية هي تغيير موضوع.

كل حكم شرعي لا يمكن ان يكون هذا الحكم فعلي الا إذا تحقق موضوعه

إذا قلنا أن الخمر حرام ونجس اما إذا تحول الى شيء اخر لا يبقى حرام ونجس

لماذا؟ لان الموضوع انتفى.

على هذا الاساس، قد يكون الموضوع يتغير إما من قِبل نفسه فالخمر نتيجة فترة من الزمن تحول الى شيء اخر، وقد يكون ان الانسان صنع معادلات كيميائية على الخمر ويتحول من الخمر الى شيء اخر.

هذه الحيل تعتبر تغيير للموضوع، فتغيير الموضوع الحكم يزول، ولكن بشرط أنَّ لا يستلزم من تغيير الموضوع نقض لأغراض الشارع، فمثلا الغرض من الزكاة او الخمس هو سد باب الفقر.

فإذا كان عليّ ألف دينار زكاة ولا اريد دفعها، ولديّ عصا لا تتجاوز قيمتها سبعة دنانير وذهبت بها لفقير وقلت له سأبيعها عليك ب 1000 دينار واقول: الالف دينار ما عليّ من الزكاة.، فهذه الحيلة إذا انتشرت وإذا جوزناها فهذه مصادرة لتشريع الغرض من الزكاة، فاذا جوزنا هذه الحيلة يعتبر الغاء للحكمة من التشريع من الزكاة.

والأمر الآخر لابد أن تكون الحيل مباحة وليست محرمة... بعض الاحيان لا يمكن للمكلف ان يطبق الحيل.. لابد من الرجوع الى الحاكم الشرعي ك إذا صار عليه اخماس متعددة وغيره.

السؤال: يوجه البعض اشكالا على الاداء العلمائي بأنه يقصر عن تلبية حاجات المجتمع بالشكل المطلوب، برأيكم هل يوجد قصور او تقصير , وان كان موجود فما هي اسبابه , والام تدعون الى تحسين ذلك , وان لم يكن موجودا فما هي مظاهر قوة هذا الاداء ولماذا تخفى على عوام الناس؟

الجواب:

أولا: ورد في الرواية: ان المؤمن لا ينبغي ان يفرج نفسه عن حد التقصير

أي من مشكلات الاداء إذا نفيت عن نفسي صفة التقصير، فلا يمكن ان نقول بأن العمل العلمائي افضل ما يكون مثلاً..

لا يمكن ان ننفي عن أنفسنا القصور أو التقصير، والشعور بصفة التقصير هي من العوامل المحفزة للتطور.

"فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ"، لا بد للإنسان ان يتهم نفسه.

ثانيا: بعض القضايا لربما انت لديك تصور معين وعلى ضوء هذا التصور ترى أنَّ الموقف ينبغي أن يكون بهذا النحو، والذي يناسب هذه القضية هذا الموقف، لأنك امتلكت تصور معين.

ثالثا: طبيعة الناس تأمل أكثر وترجو اكثر وتطالب اكثر، **ولكن هل كل ما نرجوه لا بد ان يتحقق؟**، قد تكون هناك ظروف تمنع هذه الأمنية المشتركة بين الجميع...

رابعا: كل عمل بشري لابد ان يعتريه القصور، ولابد من المراجعة والمحاسبة ومن خلال المراجعة يدرك الإنسان أن هناك أخطاء، وعلينا تفادي هذه الأخطاء فيما يأتي من قضايا ومواقف...